نشأة الخط العربي بين التوقيف والاصطلاح

د. سمير ربوزي

ثانوية نواري بلقاسم الجلفة

s.rabouzi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/08/10، تاريخ القبول: 2018/11/25

الملخص:

الكتابة الخطّية نعمة إلهية، ومعلم من معالم الحضارة الإنسانية، فلا غرابة إذن أن أقسم الله تعالى بها في قوله: ن والقلم وما يسطرون، وحثَّ عليها النبيُّρ في باب عظيم من أبواب حياة الإنسان، ألا وهو العلم، حيث قال: "قيّدوا العلم بالكتاب"، ولا غرابة أيضا في أن نجد كمًّا هائلا من أقوال الحكماء، ووصايا العلماء والأدباء، تنوّه بأهمية الخطّ، وتشدّد على ضرورة تعلّمه وإتقانه. إنّما الغرابة أن لا نجد قولا مقنعا، ومذهبا يطمئن القلب إليه في بيان مبدأ ظهور ملكة الخطّ، وأغربُ من ذلك أن نجد أصحاب أشهر قولين في هذه المسألة يعتمدون – أحيانا– في عرض مذهبهم على أدلّة واهية، وأخرى أشبه ما تكون بالقصص الخرافية، والأخبار الأسطورية، على الرغم من أهمية هذا الموضوع، وحاجةِ الإنسانية جمعاءَ الشديدةِ إليه.

الكلمات المفتاحية: نشأة؛ الخط؛ العربي؛ التوقيف؛ الاصطلاح

Abstract:

Written is a divine blessing and a mark of civilization. It is not surprising when ALLAH swears by written:"NOUN,I swear by pen and what they write by it" and the prophet insists in science by writing when he says:" save knowledge by writing." .Also it is not surprising when many great scientists and writers noting the importance of writing with the obligation to learn it.

The stranger matter is the absence of a persuasive and convincing theory about the writing first appearance. Further the most both theories hereby relay on flimsy arguments that could be considered much more as fairy tales and mythical piece of information. This last is found regardless of the importance as well as the need to it.

We attempt to analyze and criticize both theories to found a fair idea that could be useful for writing especially for Arabic writing.

Key words: Foundation - writing – Arabic - inspiration - convention

مدخل

ليس مفاجئا أن يَعجَل علينا بعض القرّاء الأكارم بإصدار حكم، أو على الأقل رأي سابقٍ لأوانه بخصوص جِدّة هذا المقال، وما إذا كان فيه شيء يستحقّ الالتفات إليه، بسبب الاقتصار على النظر في عنوانه، وعدم التمهّل وقراءة مباحثه ومطالبه، والوقوف على الإشكالية التي دعت إليه، وغذّت الرغبة في تتبّع جزئياته وتفاصيله، لن يكون ذلك مفاجئا لنا، ولا حتى محلّ استغراب أو أسف عندنا؛ لأنّنا نعذر كلّ مطّلع على بعض ما كُتب في نشأة الخطّ عموما، والخطّ العربي على وجه الخصوص، فضلا عن أن يكون ملمّا بكثير منه أو أكثره، نعذره –ولو تجوُّزًا– في بناء قناعة ذهنية صلبة، مفادها أنّ مسألة نشأة الخطّ، ومبدأ ظهوره، لا يمكن أن يأتي فيها كاتبٌ بجديد، ما لم يكن منطلقَه ومستنده دليلٌ ملموس محسوس، كحفرياتٍ لم يتمَّ العثور عليها فيما مضى، أو نقوشٍ لم يطّلع عليها أحد من الباحثين السابقين.

ولقد تعمّدتُ أن أثير في بداية هذا المقال مسألة الحفريات والنقوش، وأعترفَ أنّي لم أعتمد على شيئا منها فيه، ولا فكّرتُ في ذلك أصلا؛ وذلك أنّ الذي دعاني إلى البحث في موضوع مبدأ ظهور الخطّ هو ما يمكن إجمالُه في الأسباب الثلاثة الآتية:

– قلةُ الكتابات المستقلة في هذه المسألة خاصة؛ إذ الملاحظ أنّ جُلّ من تعرّض لها من القدماء والمحدثين كان إما معتمِدا على عدد قليل من الأقوال المأثورة عن أخبار بني إسرائيل، ومعلومٌ ما عُرف به أكثر هذه الأخبار من الغرابة والخرافية، أو مستنِداً على حفرياتٍ ونقوش قليلة هي الأخرى، ما أدّى إلى قلة الكتابات في هذا الموضوع، وفقرها إلى الأدلة الكافية، والحجج المقنعة الشافية.

– الغياب النسبي في بعض الكتابات، والكلّي في أكثرها، للأدلة الشرعية التي تنأى بالقارئ عن كلّ مواضع الشك والريبة، وتضعه أمام حقيقة واضحة، ومذهب يطمئن القلب لاعتماده، والميل إليه، لاسيما فيما يتعلق بلبّ هذا الموضوع، وهو مسألة هل الخطّ العربي وقفيّ أم اصطلاحي.

– عدمُ قدرة المعتمدين على الأدلة الملموسة، المتمثلة في الحفريات والنقوش، على الجزم بأنّ ما في أيديهم منها يشكّل لوحده صورة واضحة، وحقيقة راسخة بخصوص منشأ الخطّ عموما، والخطّ العربي على وجه

الخصوص؛ فلسنا نجزم، ولا غيرُنا في وسعه ذلك، أنّ قابل الأيام أو الأعوام لا يحمل في طيّاته الجديد حول ما يتعلق بهذه النشأة، ناهيك عن اللوحات الضائعة، والنقوش التي غيّبتها التغيّرات المناخية، أو أتلفتها أيادي الإنسان أو غيرُها من المتلفات المختلفة الأخرى.

من أجل ذلك كلّه أحاول في هذه الورقة أن أسهم، ولو بالشيء القليل، في إماطة ما تبقّى من اللثام المضروب على وجه هذه المسألة، وأبذل ما في الوسع للموازنة بين قولين شهيرين لأهل العلم من العلماء والباحثين، أو الترجيح بينهما، هما القول بتوقيفية الخطّ، والقول بأنه من جملة الصنائع الإنسانية التي لا مبرّر –كما يزعم أصحاب هذا القول– لاعتباره من خوارق العادات التي لا سبيل للإنسان إلى تعلّمها إلا عن طريق الإلهام والتعليم الإلهي.

ولأنني سأتجنب الحديث عن تعريف الخط، وفضله، وكثير من المسائل المرتبطة به، لكونها –حسب رأيي– نالت حظَّها الكافي من العناية والدرس، فإنني أبدأ بالتنبيه على مسألة غاية في الأهمية، اخترتُ لها هذا الموضع لظنّيَ الغالب أنّ ما سبق من هذا البحث قد يثير تساؤلا هو: أيهدف هذا البحث لبيان نشأة الخطّ عموما، أم الخط العربي على وجه التحديد؟

وهذا التساؤل الوجيه هو ما نشأ لديّ بسببه، وبسبب ما لاحظته على أكثر الكتابات في هذا الشأن، تساؤلٌ جوهري هو: لماذا يعمِد كثير من الباحثين إلى الفصل بين نشأة الخط عموما، والخط العربي على وجه الخصوص؟، هل عندهم من الأدلة ما يثبت أنّ الخط العربي لم يكن أوّل خطّ ظهر على وجه الأرض، أو على الأقل من أوائل ما ظهر من أنواع الخطوط؟

الحقيقة أنّ كوني ضنينا جدّا بهذه الكلمات والسطور، ومعتقِداً أن مناقشة هذه المسألة أقرب ما يكون إلى السفسطة والرجم بالغيب، يجعلني أصرف النظر عنها، وأنتقل إلى ما أعتبره أولى منها، وأجدرَ بالمباحثة والمناقشة، وهو مسألة التوقيف والاصطلاح في نشأة الخطّ، ولكنْ إجابةً عن سؤال متوقّع في هذا الموضع، هو: مادام لم يتبيّن كون الخط العربي أوّل الخطوط نشأة، فلماذا عُنون لهذا البحث بنشأة الخطّ العربي، مع أنّه يبحث عن نشأة الخطّ عموما؟، فإنني أقول:

إنّ مبرّر اعتبار نشأة الخطّ عموما، وهي التوقيف كما سيتبيّن في هذا البحث، نشأةً للخطّ العربي أمور، أختار منها اثنين لأهمّيتهما:

الأول أنّ القول بتوقيفية الخط عموما قولٌ بتوقيفية الخط العربي، بل هو كذلك من باب الأولى؛ لأن للخطّ العربي خصوصياتٍ وميزات يقلّ، بل ينعدم وجودها في غيره من الخطوط، ولما كان أقوى ما يُعتمد عليه في إثبات توقيفية الخطّ، إضافةً إلى ما سنعرض من الأدلة والإثباتات، هو أنّ الخطّ ملكةٌ خارقة، وصنعة ليس في مقدور أيّ إنسان كائنا من كان، أن يخترعها دون الاعتماد على مثال سابق، فإنّ أيسر ما يُستدلّ به في اعتبار الخط العربي تابعا للخطّ الأول نشوءاً في مسألة كيفية النشوء هو القول بأن الخط العربي امتداد للخط، فما كان على العرب إلا أن يضاهوا ما قام به سابقوهم إلى استعمال الخطّ، فيكون الخطّ العربي فرعاً اصطلاحيا عن أصل توقيفي، فيكون توقيفيا من هذه الجهة.

الأمر الثاني أن أدلةً تؤكد أن الخط العربي، ولو لم يكن أول الخطوط ظهورا، فإن أحدا لا يمنع أن يكون هو الآخر ظهر بالوقف، وهذا ما نلج من خلاله إلى مسألة نحسب أنّها لم تنل عناية الباحثين بها، ولا حتى إشارة أكثرهم إليها، أعني مسألة تعدّد أوقات وأشخاص الوقف، فليس بالضرورة عندما نقول إنّ أول ظهور الخطّ كان بالإلهام، أن ينتفي ظهور خطّ، أو خطوط أخرى كثيرة بعده بأزمنة قريبة أو بعيدة، بالإلهام أيضا، الأمر الذي يعني أن تأخّر ظهور الخطّ العربي إن صحّ فإنه لا يلزم منه أنّه ظهر بالاصطلاح والتواضع، فقد يكون ظهر بالتوقيف والإلهام، وسيأتي معنا مزيد بيان لهذا المعنى.

المطلب الأول: متى بدأ عهد الكتابة بالقلم؟

من اللطيف هنا أن نذكر حديثا للنبيρ يضعنا أمام حقيقة لا أحسب كثيرا من الباحثين إلا غفل عنها، أو تغافل عن دلالاتها ورموزها، هي أنّ الكتابة الخطية لها شأن عظيم في حياة الإنسان وغيرها، كيف لا وهي أوّل حدث عرفه الكون بأسره!؛ فعن عبادة بن الصامتτ، قال: سمعت رسول اللهρ يقول: «إنَّ أولَ ما خلق الله

القلمُ، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر: ما كان، وما هو كائن إلى الأبد»[1]، وقد ورد هذا الحديث بروايات عديدة، وألفاظ متقاربة، كلّها تُجمع على أنّ أوّل مخلوق لله تعالى هو القلم، وأوّل أمرٍ لأوّل مخلوق كان الكتابة، فأيّ منزلة هذه للكتابة، وأيّ أهمّية لها وللقلم..!

وليس هذا وحسب، بل إنّ في صحيحي البخاريّ ومسلم، وغيرهما، أنّ الله تعالى كتب بيده كتابا قبل أن يخلق الخلائق أجمعين، كتابةً تليق بجلاله، وعظمة سلطانه؛ فـ"عن أبي هريرةτ قال: سمعت رسول اللهρ يقول: «إن الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: "إن رحمتي سبقت غضبي"، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[2].

ولا تقتصر منزلة القلم على أن كان أوّل مخلوق لله تعالى، وأوّلَ مأمور ممتثل لأمره سبحانه، بل تتعدّى ذلك فتشمل كونه ممّا أقسم به سبحانه، وأمر بالعناية به، واصطحابه، والانتفاع بخدماته الكثيرة، ووظائفه الجليلة؛ ففي التنزيل قوله سبحانه: "ن والقلم وما يسطرون[3]"، "فأقسم به، وذلك في غاية الشرف، ولله أبو الفتح البستيّ حيث يقول:

إذا أقسم الأبطالُ يوما بسيفهم *** وعدّوه مما يُكسب المجدَ والكرمْ

كفى قلم الكتّاب عزّا ورفعة *** مدى الدّهر أنّ الله أقسم بالقلم

وقيل: البيان اثنان: بيانُ لسان، وبيان بنان؛ ومن فضلِ بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينبسه اللسان تدرسه الأيام"[4].

أفيُعقل بعد هذا الكلام أن يقال إنّه "كان على الإنسان أن ينتظر ردحاً من الزمن، مقداره خمسون ألف سنة قبل أن يبدأ في تمثيل كلامه المسموع إلى رموز خطية مرئية"[5]؟!.

---

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، ص1422هـ، رقم: 7554، ج9، ص160.

(2) الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، رقم: 2155، ج4، ص457.

(3) القلم: 1.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، د.ط، د.تا، ج2، ص474، والبيتان من الطويل.

(5) انظر: والتر أونج: الشفاهية والكتابية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1994م، ص165.

وأعجبُ من هذا الزعم ما ادّعاه أحد الباحثين في قوله: "وقد مضت قرون عديدة، كان البشر فيها يتفاهمون كالأنعام والبهائم!، إما بالإشارة أو بالأصوات الغامضة"(1)!!، إلى غير ذلك من الأقوال الغريبة، والأحكام التي لا يقبلها عقل، ولا يرضى بها بحث علمي رصين.

إن الذي جرّأ أصحاب هذه المجازفات الفجّة هو ما اغترّوا به من الحفريات والنقوش، التي تدلّ –حسب زعمهم– على أنّ الكتابة جاءت متأخرة جدا عن زمن ظهور الإنسان، ومن الواجب أن نقول إنّه لا يحقّ لأحد من هؤلاء المكتشفين والباحثين، فضلا عن غيرهم، أن يجزم، من خلال ما توفّر لديه من هذه الأدلة، بأنّ الكتابة لم تكن لتتجاوز هذا الحدّ من التاريخ، أعني التاريخ المحدّد لوقت ظهور هذه الآثار المكتوبة؛ وذلك أنّ قولا كهذا يفتقر:

إمّا إلى شهادةٍ على أنّ هذه الآثار هي أوّل ما خطّته يد الإنسان، وهذا محض تخمين ورجم بالغيب؛ فلا أحد في إمكانه العلم بمثل ذلك؛ فقد تكون هنالك لوحات أخرى خطّها الإنسان، ولم يكتب لها البقاء، لأنّها تعرّضت للتّلف، أو ضاعت مع الضائعات.

وإمّا إلى جزمٍ بأنّ هذه الأرض لا يمكن أن تكون مخبِّئةً تحتها، أو في بعض مناكبها وزواياها التي لم تطأها أقدام هؤلاء المستكشفين ولا غيرهم منذ آلاف السنين، ما يثبت أنّ الخطّ البشري بدأ في وقت سابق، أو سابق جدّا للوقت الذي أوشكت أن تتفق عليه كلمة الباحثين والمنقّبين المعاصرين.

وبعيدا عن هذه التخمينات والآراء البشرية، تحسُن الإشارة إلى أمر لا ينبغي إغفاله ولا استبعادُه، وهو أنّ بين أيدينا –نحن المسلمين– من الأدلّة القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يُعتبر من حيث الحجّية أقوى من الأدلّة الحسية نفسها، أعني الوحي الإلهي، ممثَّلا في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريمρ الصحيحةَ الثّابتة، والتي لا يمكن أن تتعارض معها الحقائق الحسّية، ولا المسلّمات العقلية، إلا لدى من غلا في تحكيم عقله، فحاد به عن المسار الصحيح، أو زاغ به الهوى، فكابر، وخالف الحقّ الواضح الصريح.

(1) محمود عباس حمودة: تطور الكتابة الخطية العربية، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ط1، 1421هـ–2000م، ص13.

هذا، وأودّ أن أقول –تمهيدا لبحث فكرة أوّل خطّ عرفته البشرية– إنني أطلتُ البحث والتنقيب في كتب التاريخ، والحديث، والأدب، والبحوث الاستشراقية، وفي نتائج الدراسات الحفرية، والآثار المكتوبة التي عُثر عليها أثناء عمليات التنقيب، والبحثَ عن أدلّةٍ على عمر الكتابة، ومراحل تطوّرها، وأيّ الكتابات كانت أصلا لغيرها، أطلت البحث في ذلك كلّه فلم أجد دليلا صريحا على بيان اللغة التي نطق بها الإنسان الأوّل، وهو آدمυ[1]، غيرَ حديث واحدٍ طويل منسوبٍ إلى النبيρ، فيه قوله: «..يا أبا ذر، أربعةٌ سريانيّون: آدم، وشيث، وأخنوخ، وهو إدريس، وهو أوّل من خط بالقلم، ونوح، وأربعةٌ من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيّك محمد.. »[2]، وهذا الحديث فيه مما يخصُّنا إشارتان اثنتان، بالغتا الأهمّية والخطر:

الأولى ما يتعلق بسُريانية آدمَ والأنبياء الثلاثة الباقين، عليهم السلام، وهذا ما قد يجرّئ البعض على القول بأنّ أوّل لُغة نُطق بها، وربّما أوّل قلم خُطّ به، هو الخطّ السرياني.

والثانية مسألةُ أوّليةِ الخطّ؛ ففي الحديث أنّ إدريسυ هو أوّل من خطّ بالقلم، وهذا ما من شأنه أن يبعثر أوراق كثير من الباحثين، ويقلب الطاولة على كلّ من أطلق الكلام على عواهنه، وراح يجزم بأنّ الإنسان لم يعرف الكتابة إلا بعد آلاف السنين، ونحو ذلك ممّا مضى معنا قريبا طرفٌ منه، ولابدّ لنا، وقد أخذنا على أنفسنا أن لا نصدُر إلا عن دليل صحيح، وحجة قوية، أن نُعلّق على هذا الحديث، بما يثبُت من خلاله ما انطلقنا منه قبل قليل، من أنّ الجزم بمعرفة اللغة التي تكلّم بها آدم الأولى محضُ تحكّم وادّعاء، فنقول:

---

[1] خلافا للآراء الغريبة، التي قالت بوجود بشر قبله!

[2] أخرجه ابن حبان، انظر: البُستي، محمد بن حبان، أبو حاتم: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ – 1993م، رقم: 361، ج2، ص76، ويأتي قريبا بيان درجته.

أوّلا: بالنسبة لثبوت هذا الحديث، ودرجة صحّته، فقد أعلّه أكثر نُقّاد الحديث؛ لأنّ فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، اتّهمه أهل الحديث بالكذب[1]، فالحديث لا يثبت عن النبيρ، ولا عن غيره ممّن يُعتدّ برأيه، فنضع مسألة السريانية جانبا.

بقيت مسألة الخطّ، وأن إدريسυ أوّل من خطّ بالقلم، وهذه فيها حديث آخر عن النبيρ، أنّه قال: «أوّل الرسل آدم، وآخرهم محمد، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأول من خطّ بالقلم إدريس»[2]، وقد حكم عليه بعض أهل الحديث بالضعف أيضا، بل بالضعف جدّا[3]، وحتى على فرض ثبوته، فإنّ فريقا من أهل العلم[4] قالوا بأنّ الخطّ المذكور في هذا الحديث غيرُ الخطّ الذي هو الكتابة، وإنّما هو خطّ الرمل[5] المذكور في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، عن معاوية بن الحكم السلميτ قال: قال رسول اللهρ: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخُطُّ، فمن وافق خطه فذاك»[6]، ولو أنّ في النفس شيئا حيال ذلك، من جهة استعمال لفظ القلم في حديث أبي ذرّ، مما يستبعد، والله أعلم، احتمال كونه خطّ الرمل، إلا أنّ ضعف الحديث، مع عدم اتّفاق كلمة أهل العلم على صحة ما فيه من المعلومات والأخبار، كافيان لترك الاحتجاج به، وبناء شيء من الأحكام عليه.

---

(1) ذكر ذلك كثير من العلماء والمحدّثين، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله: "إسناده ضعيف جدا، إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني الدمشقي، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في «الجرح والتعديل» 2/ 142، 143، وقال الذهبي: متروك، وكذبه أبو زرعة، كما في «ميزان الاعتدال» 1/ 73 و4/ 378، انظر المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسهما.

(2) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.تا، ج1، ص437.

(3) انظر: الألباني، محمد بن نوح، أبو عبد الرحمن: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، د.ط، د.تا، رقم: 2127، ج1، ص311.

(4) منهم ابنُ كثير، وعلي القاري، والمناوي، والشوكاني، والمباركفوري، وغيرهم، راجع شروحهم للحديث الآتي ذكرُه.

(5) ضربٌ من الشعوذة، وقد ذهب أكثر العلماء إلى تحريمه، وهو معروف بهذا المصطلح حتى في زماننا هذا.

(6) انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسن: المسند الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا، رقم: 121، ج4، ص1749.

وقد يَفهم البعض أنّ في تشكيكنا في كون إدريسU أوّل من خطّ بالقلم انتصاراً لمذاهب كثير من المحْدثين في أنّ الخطّ جاء متأخّرا عن هذه الفترة؛ إذ نفيُ الأوّلية عن هذا النبيّ يعني القول بتأخّرها عن زمانه، وانتقاله إلى من يليه، ممّن لابدّ أن يكون داعيهم إليها مقتضياتِ المدنية، وحاجةَ الحضارة الإنسانية، المتمثلة في نظام الحكم، ومتطلّبات التجارة، ومقتضيات المعاملات المالية، والأقضية، والمراسلات المختلفة، وهو مذهب طائفة من العلماء، أشهرهم ابن خلدون، الذي بسط القول في ذلك في الفصل الثلاثين من مقدّمته، الموسوم بقوله: "في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية"[1]، قلت: قد يفهم البعض من هذا التشكيكِ أنّنا نروم القول بتأخّر الخطّ عن هذه الفترة، والميل إلى مذهب القائلين باصطلاحيته، لا بتوقيفه؛ إذ لو كان توقيفيا لما تأخّر عن كمّ غفير من الأنبياء والمرسلين، وهم أحوج ما يكونون إليه، لاسيما إذا صحّ مذهب القائلين بأنّ إدريسU متأخّر عن نوحU، لا سابقٌ له كما هو شائع بين الإخباريين وكثير من أهل التفسير[2]، والحقيقة أننا على العكس من ذلك تماما؛ إذ لم نزل شبه مقتنعين بأنّ الخطّ سابق لهذه الفترة، أو على الأقل غيرُ متأخّر عنها، وقبل عَرض هذا المذهب الذي أحسَب أنّ أحدا لم يلتفت إليه، ولا بنى أقواله عليه، إلا من قبيل الافتراض والإشارة، أذكر، في عُجالة، أشهرَ قولين لأهل العلم في نشأة الخطّ الإنساني، وأقوى ما استندوا في ذلك عليه، ثم مناقشة ذلك، وتقديم ملخّص بحثنا في المسألة، مع أدلّته، بحسب ما يحتمله المقام من ذلك كلّه:

المطلب الثاني: نظرية القول بالتوقيف[3] في نشأة الخط العربي

---

[1] ابن خلدون: مقدمته، ج2، ص119.

[2] اختلف أهل الأخبار والتفسير في من كان قبل الآخر، إدريس أم نوح عليهما السلام، والحقيقة أن من يتأمل أدلة الفريقين، وأسلوب القرآن الكريم في عرض قصص الأنبياء، كما في قوله تعالى: **"إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ"** [النساء163]، يميل إلى قول من اعتبر نوحاU أسبق، وفي هذا يقول الإمام القرطبي: "إدريس بعد نوح على الصحيح"، انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م، ج3، ص31. "

[3] لا ينبغي أن تنحصر صورة التوقيف لدى القارئ الكريم في مسألة كيفية رسم الحروف، واختيار الحرف المناسب للصوت المناسب، ولا نحو ذلك من آليات الكتابة والخطّ وحسب، بل المقصود قبل ذلك كلّه أصل فكرة الكتابة، أي كيف خطر للإنسان الأول فكرة تجسيد الكلام المنطوق على ألواح وأوراق ونحوها من وسائل الكتابة المعروفة.

مفادُ هذه النظرية أنّ الله تعالى علّم الخطّ نبيّا، أو أكثر من أنبيائه، وهو مذهب كثير من اللغويين والإخباريين العرب، لاسيما المتقدمين منهم، ولازلتُ أستغرب مبالغة الدكتور محمود عباس حمودة في اعتبار القائلين به أكثريةً غالبة، حين قال: "تكاد تجمع المصادر العربية الأدبية على أن الخطّ الذي كتب به العرب توقيفي، علّمه آدمυ، فكتب به الكتب المختلفة"[1]؛ فلم يزل اللغويون، والإخباريون، والأدباء.. في خلاف حول هذه المسألة، وإن تعجب فعجبٌ قولُه بعد ذلك: "ولقد فطن إلى ما في هذا الرأي من غثاثةٍ المؤرخُ الاجتماعي ابن خلدون، الذي يقرر أنّ الخط من جملة الصنائع المعاشية.."[2]، فهاتان مبالغتان، ما إحداهما بأبعد من الأخرى عن الصواب وسداد الرأي.

وإذ نعترض على هذا الأسلوب المشتمل على هاتين المبالغتين الجائرتين، فإننا لا ننفي أنّ كثيرا من الروايات التي اعتمد عليها أشهر القائلين بمذهب التوقيف في نشأة الخطّ عموما تشبه في طرحها أسلوب الخرافة والأسطورة، كتلك الرواية المنسوبة إلى كعب الأحبار، أنه قال: "يروى أن أول من كتب الكتاب العربي، والسرياني، والكتب كلَّها آدمυ قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه، فلمّا أصاب الأرض الغرق وجد كلُّ قوم كتابا فكتبوه، فكان إسماعيلυ وجد كتاب العرب"[3]، والتي لا نجد مندوحة عن التعليق عليها، لما في ذلك من إنصافٍ لهذا المذهب من جهة، وتفنيد ما تضمّنته من المغالطة والمبالغة من جهة أخرى، وسأكتفي بالتعليق على هذه الرواية الشهيرة في ثلاث نقاط تخرجها من دائرة الوثائق المعتمدة، والأدلة المعتبرة:

الأولى أنّ نَسَب هذه الرواية مجهول؛ فلم أعثر عليها في واحد من كتب الأحاديث والآثار، ولا في كتب التاريخ والأخبار، وإنّما وردت في بعض كتب اللغة والأدب، وقد تقرّر في أصول الكتابات العلمية وجوبُ الرجوع

---

(1) محمود عباس حمودة، تطور الكتابة الخطية العربية، ص62.

(2) نفسه.

(3) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص9، والقزويني، أحمد بن فارس، أبو الحسين: الصاحبي في فقه اللغة العربية، قام بنشره محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ-1997م، ص15، والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م، ج2، ص293، وغيرهم، وللإنصاف، فإنّ أكثر من أورد هذه الرواية ذكرها على سبيل النقل والإخبار، لا على سبيل الجزم والاستدلال.

في كل مسألة إلى الكتب المتخصّصة فيها، لاسيما إذا تعلّقت بمسألة شرعية، أو أمر غيبي مستتر عن عقول الناس، واستنباطاتهم القاصرة.

والنقطة الثانية أنّ كعباً لم يصرّح بصحة هذه الرواية، ولا حتى بمن نقلها عنه، بل عزاها إلى غير معلوم: "يروى"، وهذا الأسلوب لا يثبُت به علم، ولا تقوم عليه حقيقة تاريخية ولا غيرها، على أنّ الغالب أن يكون المرويّ عنه هنا هو كتب بني إسرائيل؛ فقد عُرف عن كعب رحمه الله الإكثار من ذلك، قال ابن كثير: "كعب الأحبار من أجود من يُنقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئا عن أهل الكتاب، فكان عمرτ يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفا لقلبه، فتوسّع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضا هو في نقل تلك الأشياء التي كثيرٌ منها ما يساوي مدادَه"[1]، ومعلوم أن الإسرائيليات لا تُصدّق ولا تُكذّب لِما لحق أكثرها من التحريف والتزييف[2].

وأما النقطة الثالثة فهي أنّ العقل المنصف يستبعد أن يكون آدمυ علِم آنذاك كلّ أنواع الخطوط التي يمكن أن يتعلّمها إنسان في هذه الدنيا، والتي تعدّ بالآلاف، فضلا عن أن يكون كتبها في طين، وطبخه!، وأيُّ حكمة إلهية تتحقّق من ذلك؟!، مع اعتقادنا الجازم أنّ الله تعالى قادر على أن يقول لذلك كن فيكون، ولكنه سبحانه وتعالى منزّه عن اللغو والعبث، ربط الأسباب بمسبباتها، وخلق كل شيء فقدّره تقديرا.

وأودّ أن أضيف هنا مسألة تتعلق باللغة والخطّ كليهما، وقد تقدّم معنا الإشارة إليها، وهذا هو الموضع المناسب لبسط القول فيها، وهي أنّ الكلام عن التوقيف لا ينبغي أن ينحصر في آدمυ، وإن كان ورد النص بذكره في قوله سبحانه: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا[3]؛ إذ جائزٌ شرعا، وعقلا، وواقعا، أن يُلهم الله من يشاء من

---

(1) انظر: ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408هـ-1988م، ج2، ص159.

(2) ولهذا قال النبيρ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم..»، أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، تحت رقم: 1492، ج2، ص803.

(3) البقرة: 31.

عباده، ما يشاء من الصنائع والعلوم، كيف لا وقد ألهم النحل كيف تبني بيوتها، وتدبّر أمر معيشتها؟، قال جلّ وعلا: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)[1].

وحتى لا يُقال إنّ هذا الكلام غيرُ ما نحن فيه من توقيفية اللغة والخطّ، فإنني أذكر دليلا لم أجد من استند إليه في تقرير حقيقة نشأة الخطّ، ولا من اعتبره حجّةً للقائلين بتوقيفه، منهم ولا من غيرهم، وإن كنا لا نعدِم له ذكرا في مثل هذه الدراسات والمباحث، لكن في سياقات ثانوية، لا يُفهم منها أن أصحابها يعتبرونه دليلا على توقيفية الخطّ، فضلا عن أن يستدلّوا به على أنّ التوقيف ليس بالضرورة أن يكون خاصا بآدم، أو بغيره من الأنبياء عليهم السلام، هذا الدليل هو قول الحقّ سبحانه مخاطبا نبيّه عيسىυ: "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)[2]، ولقد تعمّدت أن أذكرَ الآية بتمامها بياناً لأنّ تعليم الكتاب، الذي هو الخطّ عند عامة المفسرين، ذُكر ضمن جملة من الآيات المعجزة، والدلائل الباهرة على نبوّة ابن مريمυ، وهذا ما يُفهم منه أنّ الخطّ لا يمكن اعتباره مجرّد صنعة بشرية دعت إليها الحاجة، أو اخترعها أحد الأذكياء اختراعا، وإلى قريب من هذا المعنى أشار القلقشندي بقوله: "ليس من الصنائع ما يلحق بصناعة الكتابة، ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يكسب ما تكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرّفاهية والتنزه عن دناءة المكاسب، ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورفاهية العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النبيلة..، وكفى بالكتابة شرفا أنّ صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه.."[3]، ثمّ عدّد فضائل للكتابة وقال: "وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة"[4]، وكلّ من اعترض على هذا

---

[1] النحل: 68.

[2] المائدة: 110.

[3] القلقشندي، مرجع سابق، ج1، ص66. (بتصرف يسير)

[4] نفسه، ج1، ص67.

الكلام، أعني أنّ الكتابة عصيّة على أن يستحدثها إنسان، ولو ألحّت عليها ضرورته، فإننا نطالبه بأن يتخيّل كيف يحدث منه ذلك فقط، فضلا عن أن يقوم به، أو يزعم أنّه قادر عليه.

ولذلك فإنّنا نستنكر من أحد الباحثين قولَه، تعقيبا على مذهب القائلين بالتوقيف: "هذا الرأي لا يقوم على حقيقة علمية ثابتة، بل قام على التخمين والتأويل الفاسد، حيث كان أصحابه يعتبرون الخطَّ من الأمور الجبّارة التي لا يمكن ابتكارها إلا بقوة خفيّة"(1)، على الرغم من أنّ القائلين به أجلّة وعلماء، كابن فارس، وابن عبد ربه، والصولي، والقلقشنديّ في أحد قوليه، وغيرهم، ومن المؤسف أنّ كثيرا من الباحثين والمؤلفين في هذا المجال لا يسلَم أحدهم من التطاول على هذه النظرية، نظرية التوقيف، والإزراء بأصحابها، وهذا أمرٌ غير مقبول في أعراف البحث العلمي، ولعلّه راجع إلى الولع الشديد بمنتوج الغرب من المستشرقين وغيرهم، أو إلى التعلّق بالملموس، وعدم الاعتراف إلا به.

ومن عجبٍ أن يطالعنا الدكتور غانم قدوري الحمد، وهو ممن برز في ساحة التنظير لتاريخ الخط، ورسم المصحف، ونحو ذلك، وعُرف بهدوء قلمه، وسعة اطّلاعه، فيبدي رأيه حول القول بتوقيفية الخطّ، فيقول: "وهذه الروايات، بشكلها السابق –يقصد آراءً مختلفة منها القول بالتوقيف– لا يقرّها البحث السديد، أمّا قضية التوقيف فيبدو أنها سيقت في باب تفسير الآيات المشار إليها، مع أن السياق الذي وردت فيه الآيات لا يوحي بشيء من الحديث عن أصل الخطّ.."[2]، والآيات التي يقصدها الدكتور غانم هي قوله تعالى من سورة البقرة: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَابر، وقوله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) إلى قوله "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) من سورة العلق، وقوله سبحانه: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)، والحقيقة أننا نوافق الدكتور على ما قال بخصوص الآيات من سورتي العلق والقلم، بينما نخالفه فيما يتعلق بالآية من سورة البقرة، وإن كنّا لا نجرؤ على القول بأنّ فيها إشارة واضحة إلى توقيفية الخطّ، لكننا في المقابل لا ننفي ذلك أيضا، فتعليم الله تعالى آدم الأسماء كلّها قد يعقبه، أو يترتّب عليه،

(1) انظر: محمد فهد عبد الله الفعر: تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، دار النشر تهامة في جدة بالسعودية، ط1، 1405هـ-1984م، ص: 118.

(2) انظر: غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1، 1402هـ-1982م، ص29.

أو يلزم منه تعليمه الخطّ، لأهمّية هذا الأخير، ولمكانه من اللفظ، ولأمر ثالث يتعلّق بأمور النبوة والرسالة يأتي بيانه لاحقا، وهو قريب.

ولعلّ ممّا يؤكّد هذا التساؤل عمّا إذا كانت توقيفية اللغة تتبعُها، أو ترافقها توقيفية الخطّ، ما فسّر به السعدي قوله تعالى: **بز**الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)بر[1]، حيث قال: "علَّمه البيان، أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي؛ فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه"[2].

ومما نعترض به، أيضا، على الدكتور غانم قَصْرُه الآيات المتعلقة بنشأة الخطّ على هذه الثلاثة، مع أنّ في كتاب الله تعالى آيات أخرى تثبت تعليم الله تعالى لبعض عباده أمورا منها الخطّ، أصرحها الآية المتقدّمة من سورة المائدة، وفيها: **بز**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ بر ، "أي الخطّ والفهم"(3)، وعلى كلّ حال، فإنّنا نكتفي بهذا القدر من عرض نظرية التوقيف في نشأة الخطّ، ونرجئ ذكر موقفنا منها إلى ما بعد عرض ملخّص النظرية الثانية، وهي نظرية الاصطلاح، لنخلُصَ في النهاية إلى مختار البحث من ذلك كلّه، وهو الجمعُ والتفصيل، وسيأتي مع شرحه وأدلّته.

المطلب الثالث: نظرية الاصطلاح والتواضع في نشأة الخطّ العربي.

إذا كانت أقوال المنتصرين لمذهب التوقيف قد اختلفت بين أن يكون أوّل من أخذ الخطّ آدم، أو إدريس، أو هود، أو إسماعيل، عليهم السلام، أو أن يكون الله تعالى لم يقصر تعليم الخطّ على واحد من الأنبياء، على اعتبار أنّه سبحانه فعّال لما يريد، ومن خلال ما دلّت عليه الآية آنفة الذّكر من سورة المائدة، وما فيها من ذكر تعليمه تعالى نبيّه عيسىυ، فإنّ هذا الاختلاف لا يكاد يعدل معشار ما وقع فيه القائلون باصطلاحية الخطّ؛ فقد ذكروا أقوالا متضاربة، وروايات عديدة، لا يسلم كثير منها، هي الأخرى، من الطابع الأسطوري

---

(1) الرحمان: 1-4.

(2) انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ -2000م، ص828.

(3) الطبري، جامع البيان، ج11، ص215.

الخرافي، وحتى لا نثقل ورقتنا هاته بعرض كلّ ما قيل في ظروف الاصطلاح على الخطّ واختراعه، فإنّنا نكتفي بعرض أشهر هذه الروايات، بشكل موجز، ونشير إلى أنّنا سنقصر الكلام على الخطّ العربي، لكثرة ما كُتب في ذلك من جهة، ولاختصاص المقال به دون غيره من جهة ثانية، ولأننا ذكرنا سابقا، وسنعيده مرة ثانية، وثالثة، أنّه ليس بين أيدينا دليل واحد ينفي أن يكون الخطّ العربي هو أوّل ما ظهر في حياة الإنسان، وليس في أيدينا أيضا ما يثبته، ولذلك فإن أقلّ قدر من مراعاة هذه الحقيقة أن لا نجزم بوجود خطّ آخر سابق للخطّ العربي، بحيث نبدأ به ونثنّي بالعربي، من جهة ثالثة، والمسألة احتمالية، لا ينبغي أن تنال أكثر من هذه الإشارة العابرة.

بدايةً ينبغي التنبيه على أنّ بعض ألفاظ الروايات المتضمّنة ذكرا لأوّل من وضع الخطّ من الأنبياء قد يمكن اعتبارها من أدلّة القائلين بالتوقيف؛ فمن هذه الروايات مثلا ما روي عن ابن عباسτ أنّه قال: "أوّل من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه"(1)، وقد يقول قائل: لا دليل على أنّ إسماعيلυ لابدّ أن يكون تلقّى علما بالخطّ من السماء، والحقّ أنّ هذا القول واهٍ من عدّة جهات، أكتفي منها بواحدة، هي أنّ إسماعيلυ توسّط أنبياء ثبت بالدليل القاطع تلقّيهم علم الخطّ بطريق الوحي، عيسى، وكلّ رسول سبقه، على ما سيأتي معنا من استلزام الرسالة للكتابة، فما الداعي إلى خصّه بكونه وضع العربية بالاصطلاح لا بالتوقيف؟

ولا أريد أن تفوتني هنا مسألة كون إسماعيلυ أوّل من نطق بالعربية؛ فهي هامّة جدّا، وفي صحّتها تقريبٌ لِما ذكرناه من احتمال قِدم العربية، والخطّ العربي، وهذه المسألة هي أنّ إسماعيل لم يكن أوّل من نطق بالضاد كما يتوهّم كثير من الناس!، وإجابة عن الاعتراض بمقولة ابن عباس الأخيرة، والتي لم نعثر على ما يثبت

(1) انظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، أبو عمر: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ، ج4، ص239، والصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أدب الكتاب، اعتنى به محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، بمصر، والمكتبة العربية، ببغداد، د.ط، 1341هـ، ص28.

صحة نسبتها إليه، فإنّنا نورد حديثا ثابتا عن النبيρ، قال فيه: «أوّل من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة»[1]، ولابدّ لنا مع هذا الحديث، الهامّ جدّا في تاريخ العرب والعربية، من وقفتين اثنتين:

الوقفة الأولى لها علاقة بالقول بالتوقيف في نشأة الخطّ العربي، وبالاعتراض السابق قريبا على من اعتبر إسماعيل هو من وضعه بوحي من الله تعالى، وربّما يكون لهذه الوقفة إسهام في تقوية مذهب القائلين بتوقيفية اللغة أيضا، أو على الأقل التوقيفية النسبية للغة، وهو مختارنا في هذا البحث وغيره، هذه الوقفة هي على فاء لفظة فتق؛ فهي مضمومة، أي مبنية لغير المعلوم، والمعنى أنّ إسماعيلυ لم يتوصّل إلى ذلك بنفسه، بل بإعانة من غيره، ولابدّ أن يكون الفاتق للسان إسماعيل هو اللهY، كما ذكر ذلك المناوي وغيره[2].

وأمّا الوقفة الثانية فهي المتعلقة بعدم صحّة كون إسماعيل أوّل ناطق بالعربية، بل حتى كونه أبا للعرب، ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أنقل كلاما فيه بعض الطّول، تقتضيه ضرورة المسألة، للحافظ ابن حجر العسقلاني من كتابه الفتح، يقول فيه: "قوله: وتعلّم -يقصد نبيّ الله إسماعيل- العربيةَ منهم، فيه إشعارٌ بأنَّ لسان أمه وأبيه لم يكن عربيا، وفيه تضعيف لقول من روى أنه أول من تكلم بالعربية وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس عند الحاكم في المستدرك بلفظ أول من نطق بالعربية إسماعيل..، وبهذا القيد يجمع بين الخبرين؛ فتكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان، لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلّمه أصل العربية من جُرهم، ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة، فنطق بها..، ويحتمل أن تكون الأوّلية في الحديث مقيّدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقية إخوته من ولد إبراهيم، فإسماعيل أول من نطق بالعربية من ولد إبراهيم، وقال ابن دريد في كتاب الوشاح أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل، قلت وهذا لا يوافق من قال إن العرب كلها من ولد إسماعيل"[3]ا.هـ

---

(1) أخرجه السيوطي، في الجامع الصغير، رقم: 2837، ج1، ص436، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم2581، ج1، ص504.

(2) انظر: المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ، رقم: 2837، ج3، ص92.

(3) العسقلاني ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، د.ط، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، ج6، ص403.

وفي الفهرست لابن النديم أنّ مكحولاً "روى عن رجاله أنّ أول من وضع الكتاب العربي نفيس، ونضر، وتيما، ودومة، من ولد إسماعيل"[1]، واكتفى ابن عبد ربّه بذكر الثلاثة الأوائل، وأضاف أنّهم "وضعوه متصل الحروف بعضها ببعض، حتى فرّقه نبت، وهميسع وقيذر"[2]، وأغرب من ذينك ما نقله السيوطي وابن النديم، وغيرهما، عن كثير من المؤرخين القدامى، أنّ أول من وضع الخط العربي "أبجد هوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، وهم قوم من الجيلة الأخيرة، وقيل إنهم بنو المحصن بن جندل بن يصعب بن مدين، وكانوا نزولًا مع عدنان بن أدد، فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين، وقيل ببلاد مضر، فوضعوا الكتاب على أسمائهم، ثم وجدوا بعد ذلك حروفًا ليست من أسمائهم، وهي الثاء، والخاء، والذال، والظاء، والضاد، والغين، فسمّوها الروادف"[3].

فتأمّل ما في هذا الكلام من التكلّف والاصطناع، ثمّ تصوّر كيف يقوم خمسة نفر، أو عشرة، أو عشرون، بتأسيس نظام كامل من الحروف، والكلمات، وهم متباعدون، ليس في أيديهم وسائل كافية، ولا أدوات معينة، وإن أردت أن تزداد استغرابا وتعجّبا، فاقرأ إن شئت ما في فتوح البلدان للبلاذري، والفهرست لابن النديم، وغيرهما، من خبر اجتماع "ثلاثة نفر من طيء ببقة، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلَّمه منهم قومٌ من أهل الأنبار، ثُمَّ تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، لينقله بعد ذلك بشر بن عبد الملك، أخو أكيدر بن عبد الملك، صاحب دومة الجندل، وكان نصرانيا، إلى مكة، ويتعلّمه منه سُفْيَان بْن أمية بْن عَبْد شمس، وأبو قيس بْن عَبْد مناف، إلى آخر القصّة، التي يصعب على العقل أن يقبلها، وفي رواية ابن النّديم أنّ الذي حكى هذا الخبر هو ابن عباسτ، وليس هذا وحسب، بل فيها

---

(1) ابن النديم، محمد بن إسحاق، أبو الفرج: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ-1997م، ص14.

(2) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص240.

(3) انظر: السيوطي: المزهر، ج2، ص294، وابن النديم: الفهرست، ص13.

إضافة ترفعه في مراتب الغرابة درجة، وهي أنّ هؤلاء الثلاثة تقاسموا مهامّ وضع الخطّ العربي، وأجهزوا عليها كلّها لوحدهم، "فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام"[1].

ولا نريد أن نزيد على هذا الحدّ من عرض ما عرفه مذهب القائلين بالاصطلاح من تضارب بين الأقوال، ومبالغة في التساهل والتنازل عن اشتراط صحّة الأخبار، أو على الأقل عقلانيّتها؛ فقد بلغْنا مَبلغا كافيا في إثبات أنّ هذا المذهب أبعد بكثير عن الصواب، إذا ما قيس بالمذهب السابق، ولذلك أفضّل أن أختم الكلام عنه برواية أخيرة، أعتبرها بمثابة نقطة انطلاق إلى بيان ما خلصتُ إليه من مناقشة أدلة الفريقين، ونقد آرائهم:

هذه الرواية هي ما أورده السيوطي وغيرُه، من أن سائلا سأل ابن عباسτ، فقال: "معاشرَ قريش، من أين أخذتم هذا الكتاب العربيّ قبل أن يُبعث محمدρ، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق، مثل الألف واللام؟، قال: أخذناه من حرب بن أمية، قال: فممن أخذه حرب؟، قال: من عبد الله بن جُدْعان، قال: فممن أخذه ابن جُدعان؟، قال: من أهل الأنبار، قال: فممن أخذه أهل الأنبار؟، قال: من أهل الحيرة، قال فممن أخذه أهل الحيرة؟، قال: من طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة، قال: فممن أخذه ذلك الطارئ؟، قال: من الخفلجان بن الوهم، كاتب الوحي لهودυ"[2].

وإنّما اعتبرتُ هذه الرواية مبدأً لِعرض ما أراه راجحا في مسألة نشأة الخطّ العربي، ومبدأ ظهوره، لأنّها اشتملت على دعامتين اثنتين لهذا المذهب، الأولى هي أنّ من أهل التاريخ والأدب من ذكر أنّ هوداًυ أوّلُ من خطّ بالقلم العربي[3].

والدعامة الأخرى هي ذكرُ حقيقةٍ، ما أكثرَ ما غفل عنها المختصّون في تاريخ الخطّ، قدماؤهم ومحدثوهم، أعني كتابة الوحي، على الرّغم من اتّصالها الوثيق بهذه المسألة، ولأجل ذلك، فإنّه يتحتّم علينا في هذا الموضع الكلام عن ثلاث نقاط لها بالغ الأهمية والاتصال بهذه الحيثية من جهة، وبنشأة الخطّ، وتطوّره من جهة أخرى، هذه النقاط هي:

---

[1] البَلَاذُري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت1988م، ص452، وابن النديم: الفهرست، ص13.

[2] السيوطي، المزهر، ج2، ص299.

[3] نَقل ذلك عن بعضهم القلقشنديُّ في صبح الأعشى، ج1، ص480.

استلزام الرسالة للوحي وكتابتِه.

عربيّةُ هودυ.

هودυ لم يكن أوّل رسول بعثه الله تعالى في قومه.

الكلام عن النقطة الأولى: استلزام الرسالة للوحي وكتابته.

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَبر[1]، عن ابن عباسτ، قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلُّهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا»(2)، وهذه الرواية عن ترجمان القرآن اتّفق على إيرادها عامّة أهل التفسير، ومنها استنبطوا أنّ أوّل الرسل نوحυ، وأنّ بينه وبين آدم عشرة قرون، قيل إنّها شهدت مبعث عشرة أنبياء، والمسألة فيها خلافٌ لا يعنينا في هذا الموضع، إلا أنّ ما يهمّنا أنّ أكثر أهل العلم على أنّ كلّ رسول يكون معه كتابٌ فيه شريعةُ رسالته، واستدلّوا بهذه الآية من سورة البقرة، وبقوله تعالى أيضا: **بز**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِبر[3]، ومن هذا المعنى استنبط كثير من العلماء فرقاً بين النبيّ والرسول، هو أنّ كليهما مأمور بالتبليغ، غير أنّ الرسول يبعث بكتاب خاصّ، فيه شريعة قومه، وفي هذا يقول الشنقيطيّ في أضواء البيان: "وأنهما –يقصد النبيّ والرّسول– مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبيَّ الذي هو رسول أُنزل إليه كتاب وشرع مستقل، مع المعجزة التي ثبتت بها نبوّتُه، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي

(1) البقرة: 213.

(2) أخرجه الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ-1990م، رقم: 4009 ج2، ص596. وقال: حديث صحيح على شرط البخاري.

(3) الحديد: 25.

إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسولٍ قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة.."[1].

وممّا يؤكّد لنا ذلك أنّ نبيّنا ρ، وهو خاتِم الأنبياء والمرسلين، وخاتَمهم، أُرسل بشريعة الإسلام، وأُنزل معه القرآن الكريم، وكذلك موسى وإبراهيم، ثبت في قوله تعالى: "صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [2]، أنّ معهما صحفا، ومثل ذلك عيسى وإنجيله، وداود وزبوره، وهكذا، وعليه فإنّ اليقين متحقّق من أنّ مع كلّ رسول كتاباً، وهذا ما يجعلنا ندير ظهورنا لما يتمسّك به أكثر باحثي تاريخ الخطّ، ونشأة العربية، ويستدلّون له بما في أيديهم من النقوش القليلة، واللوحات الصخرية المعدودة، وحروفها المحدودة، وننطلق لنطوّف في سماء النبوة قليلا، ونعزّز ما اخترناه في بحثنا هذا، من أنّ الخطّ قديما جدّا، وهو إلى حدّ هذه السطور لا يفصله عن نشأة الجنس الإنساني إلا عشرة قرون، على قول ابن عباس τ، الذي لا يُعرَف له مخالف فيه.

إنّ القول بأنّ الرسول لابدّ أن يكون معه كتاب يلزم منه أنّ زمان الرسول لابدّ أن يعرف كُتّابا، ولو كانوا قلّة، ولو كان الرسول هو من يكتب كتابه بنفسه، فالمهمّ أن يكون هنالك خطّ، وهذا معناه أنّ الخطّ عموما ظهر في وقت باكر جدّا من عمر الإنسانية، وهو على الأقلّ زمان نوح υ، وسنناقش بعد قليل ما إذا كان الخطّ سابقا لهذه الفترة، ولكن بعد الكلام عن النقطة الثانية من هذا العرض، وهي:

عربيّة هود υ:

يُجمع النسابون، والمؤرخون، وغيرهم، على أنّ هوداً υ من الأنبياء العرب، واختار كثير منهم أنّه عابرُ الذي يُنسب إليه قحطان[3]، ومعنى هذا أنّ هذا النبي الرسول كان يتكلّم العربية، وقيل إنّه أوّل من نطق بها[1]،

---

[1] انظر: الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م، ج5، ص290.

[2] الأعلى: 15.

[3] انظر مثلا: الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387 هـ، ج1، ص216، وغيره. ومن أهل العلم من يقول: قحطان بن عامر (بالميم) وهو هود υ، انظر: العيني، محمود بن أحمد، أبو محمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج3، ص25، والذهبي، محمد بن أحمد، شمس الدين: سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، د.ط، 1427هـ-2006م، ج13، ص291.

وقيل أيضا إنّه أيضا أوّل من خطّ بالقلم العربي، وقد مرّ معنا قريبا الإشارة إلى هذا القول، وأيّا كانت صحّته، فالمهمّ أن الذي ينبغي أن لا نشكّ فيه هو أنّ زمن هودU، وهو ليس زمنا بعيدا عن زمن جدّه نوحU، كان قد عرف العربية لفظا وخطّا، لفظا لِما تناقلته الأجيال المتعاقبة، واتّفقت عليه كلمة أهل العلم، وخطّا لِما تقدّم معنا من شأن الرسالة، واستلزامها –في اعتقادنا– للكتاب والقلم.

وعليه، فها نحن نصل في مسيرنا نحو نقطة انطلاق رحلة الخطّ العربي إلى هذا الزمان الضارب في التاريخ، ولم يبق لنا بعد ذلك، إلا أن نناقش النقطة الثالثة والأخيرة، وهي مسألة تقدّم اللفظ العربي وخطّه على زمان هودU، على اعتبار أنّ نوحاU سابقٌ له إلى مقام الرسالة، وبالتالي إلى خطّ الكتاب، والحقّ أنّ هذا الذي سنناقشه في ما تبقى من هذا المطلب لا يستند على أدلّة قطعية، ولا على نصوص صريحة، وإنّما هي أقوالٌ لبعض الأئمّة، أوردوها على سبيل الاحتمال والتخمين، وربّما رجّحها بعضهم بمحض النظر والتأمّل، ولكنّنا سننسج، إضافة إلى ذلك، على منوال ما انطلقنا منه في مطلبنا هذا، وهو ارتباط الخطّ بالرسالة من جهة، واحتمال أن يكون اللفظ العربي هو أوّل الخطوط من جهة أخرى.

هذا، وإنّ النفس تميل إلى أن يكون ظهور الخطّ أسبق من ذلك بكثير، ولولا ما حصل من خلاف بين أهل العلم حول رسالة آدمU، ونزول كتاب عليه من عدمه، لجزمت بأنّ الخطّ رافقَ الإنسان منذ بدايات وجوده على هذه الأرض، وعدمُ الجزم هذا لا يُفهم منه القول بخلافه؛ فلا يزال الاحتمال قائما أن يكون آدمU خطّ بالقلم، على اعتبار أنّ ما ترتضيه النفس من أقوال أهل العلم في مسألة تعليم الله تعالى إياه الأسماءَ كلّها هو أنّه سبحانه أقدره على النطق بجميع اللغات، يتكلّم بأيّها شاء، ولا يُشكل على هذا القولِ ما قد يعترض به من يتعاظم علم آدمU بلغات هذا الزمان مثلا، أو الذي يليه، أو ما سبقه من قرون طويلة؛ لأنّ قولنا إنّ آدمU علِم جميع اللغات لا يستلزم أن يكون تكلّم بها جميعا، بل غاية ما في ذلك أنّه قادرٌ على ذلك بإقدار الله له، وتعليمه إيّاه قانونَ أيّ لغة يحتاج التكلم بها، ومعلوم أنّهU لم يكن يعاصر أهل لغات كثيرة، بل يمكن القول إنّه هو

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص138.

المؤسس الأوّل لهذه اللغات، ثم تعاقب على تنويعها وتفريعها ذريّتُه من بعده، وهذا هو القول الذي تتصالح في دائرته مختلف المذاهب والله أعلم.

فكذلك مسألة الخطّ، ومدى أهميتها في الأعمال الضرورية، والشؤون العامة، وفي مقدمتها مسألة سياسة الأمة، وتنظيم أمور حياتها، فإنّ الحاجة إليها ماسّة، والنفع باستعمالها كبير، إلا أن يُقال إن طبيعة الحياة الأولى لم تكن تحتاج إلى شديد عناية بالتراسُل، والتوثيق، والتدوين، ونشر العلوم، ففي هذه الحالة يمكن أن نتراجع قليلا –وعلى مضض– في سلسلة تاريخ البشرية، ولكن لا إلى الحدّ الذي ذكره كثير من الباحثين المعاصرين، حيث بلغوا به إلى آلاف السنين، بل هو في اعتقادي متراوح بين عشرات السنين، وبضع مئات منها، اعتمادا على النصوص الشرعية الصحيحة، والحقائق التاريخية الثابتة، الدالة على أنّ نوحاυ لم يتأخر عن آدمυ إلا بنحو من عشرة قرون، وانطلاقا من قناعة راسخة هي أنّ أهل هذه الفترة الممتدّة بين زمني آدم ونوح عليهما السلام لم يكونوا أقلّ حاجة إلى الخطّ من الأمم التي أكرمها الله تعالى به بواسطة الوحي والإلهام.

المطلب الرابع: توجيه القول بأنّ الكتابة الخطية بدأت بالمرحلة التصويرية.

يكاد يجمع الباحثون المعاصرون، عربيهم وغربيّهم، على أنّ الكتابة أوّل ما ظهرت كانت تصويرية، حتى بلغ الأمر بالدكتور غانم الحمد أن قال: "من المسلّم به..أن الكتابة بدأت تصويرية منذ أقدم العصور.."![1]، ولم يعد من حاجة إلى إعادة ما سبق بيانه من أنّ معتمد القوم الأول في هذه المسألة وغيرها من مثيلاتها المتعلقة بنشأة الخط هو ما في أيديهم من الحفريات والنقوش، غير أنّي، وبعد أخذ صورة عن كيفية الكتابة التصويرية، والتي ليس هذا المقام بالمناسب، ولا الكافي لعَرضها، وما يظهر من خلالها من التفكير الساذج الذي كان عليه أصحابها، والترقّي البطيء جدّا في درجاتها ومراحلها، بان لي أنّ هنالك معتمدا آخر استند إليه هؤلاء الباحثون في القول بهذه النظرية، هو ذلك التصوّر الذي ظلّ يتلقّاه الصغار عن الكبار، في كثير من المدارس التعليمية، والبرامج التلفزيونية، وغيرها، حتى صار قناعة راسخة لدى كثير منهم، وهو أنّ الإنسان الأوّل (البدائي، الحجري..) كان

---

[1] انظر: غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، ص77.

عبارة عن مخلوق لا يفْضُل كثيرا عن البهائم العجماوات![1]، فهو عارٍ إلا من أوراق الشجر وجريد النخل، وليس في يده من عناصر المدنية إلا ما لا يكاد يُعرف، فضلا عن أن يُذكر، وربما أكل اللحم نيّئا!، وساكن الوحوش وعايشهم!، ونحو ذلك من التصوّرات والظّنون.

وهذا في الحقيقة يعدّ إساءة غيرَ مبرَّرة لهذا المخلوق العظيم، الذي ميّزه الله بنعمة العقل، وشرّفه بالوحي منذ البدايات الأولى لتاريخه الطويل، الأمر الذي يستوجب الردّ على هذه المزاعم، وتوجيه ما تضمّنته من الحقائق العلمية، والتصوّرات السليمة، التي لم تتلطّخ بأدران التطاول على مقام إنسان ذلك العهد، ولم ينبعث أصحابها من خلفية مغرضة، أو وهم ظلّ كثير منهم يعتقدون أنّه من الحق الذي لا يشكّ عاقل فيه، فأقول مستعينا بالله تعالى:

إنّ فترة البشرية الأولى، وهي على أقل تقديرٍ أكثرُ من عشرة قرون، تُعدّ من أحسن الفترات التي عاشها الإنسان طيلة تاريخه العريق، بشهادة أصدق وثيقة عرفها التاريخ، وهي القرآن الكريم، قال الله تعالى: **بز**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ**بر**[2]، وقد مرّ معنا قول ابن عباسτ، وهو حَبر هذه الأمّة، وتُرجمان القرآن، الذي فسّر فيه هذه الآية بقوله: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[3]، وهو موافق لقراءة ابن مسعود، وأبيّ بن كعب: "كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"[4]، وكون أهل هذه الفترة كانت على شريعة من الحقّ يستلزم بالضرورة أنّهم كانوا على قدرٍ كافٍ من المدنية والحضارة؛ لأنّ الشرع الإلهي الحكيم إنّما نزل على العباد لتحقيق مصالحهم الدينية والدنيوية، وعندما نقول مدنية فإنّنا نستبعد أنّ يتصوّر أحد من الناس ناطحات السحاب، وأجهزة الاتصال، ونحو ذلك من معالم الحضارة الحديثة، ومظاهرها المختلفة، وإنّما هي مدنية ذلك

---

(1) وانظر في الصفحة .... من هذا البحث كيف أن أحد الباحثين زعم أنّ البشر الأوائل كانوا يتفاهمون كالأنعام والبهائم!.

(2) البقرة: 213.

(3) راجع الصفحة 39.

(4) انظر: ابن كثير القرشي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، ج1، صص569.

الوقت، بإمكانياتها المتوفّرة، وبحاجات أهلها اللازمة، والتي لابدّ وأن يكون الخطّ، والله تعالى أعلم، من أهمّها وأولى أولوياتها.

وحتى وإن تعيّن علينا التوقّف في ذلك، أعني في إثبات أنّ الخطّ كان ممّا عرفه أهل ذلك الزمان البعيد، فإنّ أحداً لا يمكنه إلزامنا بأن نتصوّر أنّ ذلك الإنسان هو من اخترع الكتابات التصويرية، ولا أن نتقبّل أنّه لم يعرف الخطّ بأشكاله المختلفة، ومراحله المتتالية، ولذلك، ولكي نصل إلى وفاق في هذه المسألة، فإنّنا نرى أنّ هذه الكتابات "البدائية" جاءت متأخّرة بعشرات القرون، ومن طرف أُناسٍ لم يكن معهم أثارة من علم، ولا خيط يربطهم بالوحي، كأن يكونوا وثنيين أباً عن جدّ، أو في أمكنة وأزمنة متباعدة عن العلم والوحي، أو أن يكونوا من أقوام الأنبياء لكن بعدما تنسّخ العلم، واندرست معالم الحضارة والدّين، وهذا ما يشهد له تاريخ العصور القديمة، وتؤكّده النصوص الشرعية: أنّ البشرية عرفت عصورا مظلمة، ومراحل بدائية، بسبب البعد عن حياض العلم، ومواطن الوحي، وعليه، فإنّنا نخلص إلى الآتي:

إنّ الخطّ نعمة إلهية عُظمى، وحاجة إنسانية قُصوى، لا يمكن الاستغناء عنها بحال، ولا يمكن أن تستقيم أمور العباد، وينتظم عيشُهم، وتنضبط علاقاتهم التجارية، والسياسية، والأدبية، إلا بها، ولذلك فإنّها لا تقلّ بشكل كبير عن نعمة اللغة، التي بها يتواصل الناس، ويعبّرون عن أغراضهم ومآربهم، وبما أنّ هذه اللغة كانت هبة إلهية من الله تعالى لنبيّه آدم بالوحي والإلهام، ثمّ لذرّيته من بعده بالوضع والاصطلاح، فإنّنا نرى أنّ الخطّ كذلك، غير أننا لا نجزم أنّ آدم هو أوّل من أُلهِمَ الخطّ، ولا نستبعده أيضا، بل هو الأقرب والأصوب والله أعلم، لاسيما وأنّ الخطّ، كاللغة، ملكة جبّارة، وصُنعة خارقة، لا يمكن أن يخترعها إنسان اعتمادا على نفسه، أو على غيره، كائنا من كان.

وأمّا هذه النقوش التصويرية، والرمزية، والمقطعية، فلا نملك إلا أن نثبت من خلالها أنّ أهل زمان ما قد تدرّجوا في تعلّم الكتابة عبرها، ولكن لا بالاختراع المحض كما جزم بذلك الكثيرون، فقد يكون بعضهم اطّلع على لوحات مكتوبة، فلم يحسن فهمها، وراح يتّخذ لنفسه طريقة يستعين بها على قضاء مصالحه، وقد يكون بعضهم أدرك أقواما يحسنون الخطّ، أو على الأقلّ يقرؤون الكتب المقدّسة، التي لا بدّ أن تكون مخطوطة، أو على الأقلّ

يحفظون بعض نصوصها التي قد تحمل دلالات على وجود الخطّ، أو الحثّ عليه، كما هي عادة الشرائع السماوية، وموقفها منه.

ويمكن أيضا أن يكون أحدهم أُلهم ذلك، أو توصّل إليه بذكائه الخاصّ، لكن في حال الكتابة التصويرية فقط، أمّا أن يتعدّى ذلك إلى المراحل الأخرى، وأخصّ منها المرحلة الهجائية، فأمرٌ لا يقبله –حسب رأينا– عقلٌ، ولا تثبته أدلّة قاطعة، وإنّما هي مجرّد تخمينات وتوقّعات، والله أعلم.

نتيجة البحث

يمكن اختصار ما وصل إليه البحث في نتيجة واحدة، هي أنّ الخط عموما، والخط العربي على وجه الخصوص إنما وصل إليه الإنسان بطريق التوقيف الإلهي، وإلهام الله تعالى من شاء من أنبيائه عليهم السلام، وإنما لم نكتف بالقول إن الله تعالى ألهم فلانا أو غيره من الأنبياء لأنّنا وقفنا على أدلة شرعية من القرآن الكريم، والسنة النبوية، تعضدها شواهد تاريخية وعقلية، تثبت أنّ عملية تعليم الله تعالى الكتابة الخطية لم تكن مع نبيّ واحد، بل استمرّ ذلك إلى زمنٍ غير متقدّم جدا عن أمتنا هاته، وهو زمن عيسىU، حيث قال عزّ من قائل مخاطباً إياهU، وممتنّا عليه: وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"، قال عامة أهل التفسير: الكتابُ هو الخطّ.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. ابن النديم، محمد بن إسحاق، أبو الفرج: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ-1997م.
3. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، أبو عمر: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ.
4. ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408هـ-1988م.

5. ابن كثير القرشي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م.
6. الألباني، محمد بن نوح، أبو عبد الرحمن: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، د.ط، د.تا.
7. البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، دار طوق النجاة، ط1، ص1422هـ.
8. البُستي، محمد بن حبان، أبو حاتم: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ - 1993م.
9. البَلَاذُري، أحمد بن يحي: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت1988م.
10. الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
11. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ-1990م.
12. الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، دار الحديث- القاهرة، د.ط، 1427هـ-2006م.
13. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ -2000م.
14. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م.
15. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.تا.
16. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.

17. الصولي، أبو بكر محمد بن يحي: أدب الكتاب، اعتنى به محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، بمصر، والمكتبة العربية، ببغداد، د.ط، 1341هـ.
18. الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387 هـ.
19. العسقلاني ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، د.ط، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
20. العيني، محمود بن أحمد، أبو محمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا.
21. غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1، 1402هـ-1982م.
22. القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م.
23. القزويني، أحمد بن فارس، أبو الحسين: الصاحبي في فقه اللغة العربية، ط1، 1418هـ.
24. القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، د.ط، د.تا.
25. محمد فهد عبد الله الفعر: تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، دار النشر تهامة في جدة بالسعودية، ط1، 1405هـ-1984م.
26. محمود عباس حمودة: تطور الكتابة الخطية العربية، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ط1، 1421هـ-2000م.
27. مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسن: المسند الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا.
28. المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ.
29. والتر أونج: الشفاهية والكتابية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1994م.